مقامات الصادقين

كل قوم على أقدارهم

امتحان المؤمن

علامة الواصلين

مقام القرب

كل قوم على أقدارهم

واعلم أيها السائل عن الصدق وشرحه : أن الذى ذكرته لك ، إنما هو ظاهر الصدق والصبر ، والإخلاص الذى لايسع الناس جهله ، ولاترك العمل به ؛ خاصة المريدين من الناس ، الطالبين لسلوك سبيل النجاة .

ومن الناس : من لايكون له عند الله تعالى إلا هذا العلم الظاهر والعمل الظاهر ، فيفعل فى ذلك ويصدق فيه ، فيؤديه ذلك إلى رحمة الله تعالى وثوابه ، وله عند الله خير كثير .

ومن الناس من يصدق فى هذه المقامات التى ذكرناها وأكثر ، فيؤديه ذلك فى عاجل الدنيا إلى المقام الرفيع والعلم بالله والمقام الشريف ، فيصير إلى الروح والراحة ، والنعمة بمعرفة الله عز وجل ، والظفر بقرب الله تعالى ، والوصول إلى المنزلة الشريفة ، التى يدق[1] وصفها وشرحها .

وقال بعض العلماء بالله تعالى : إن الله يكرم أولياءه بكرامة لايطلع عليها العباد ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

(١) يدق : دق الأمر يدق إذا غمض وخفى معناه فلا يكاد يفهمه إلا الأذكياء .

ألم تسمع لقول الله ، عز وجل : ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1] .

ويقال فى الحديث : «فيعطون مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

وهكذا كل قوم على أقدارهم .

ومنهم من لاتنقضى كرامته من ثواب الله تعالى ، ومن النعيم فى الجنان ، ومنهم من لاتنقضى كرامته من الله تعالى ، والزيادة من بره والنظر إليه .

وقد صح الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : «إن أدنى[2] أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه ألفى عام يرى أقصاه[3] كما يرى أدناه»

ومنهم من ينظر إلى وجه الله جل وعز كل يوم مرتين .

ومحال أن يكون هؤلاء سواء ، أو كان علمهم فى الدنيا سواء .

قال جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ﴾[4] .

فلم يقع التفضل على الخلق إلا بفضل علمهم بالله تعالى والمعرفة به ، ثم على قدر هذا الأنس : تفاوتوا فى الدنيا والآخرة .

وبالله التوفيق .

---

(١) الإسراء : من الآية ٥٥ .
(٢) أدنى : أقل :
(٣) أقصى : أبعد .
(٤) السجدة : ١٧ .

امتحان المؤمن

قلت : فهل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه ، ويسقط عنه مؤنة الأعمال ، وأثقال الإخلاص ، ومؤنة الصبر ، ويكون عاملا بالصدق : فأخذ مما ذكرت وأكثر بلا اشتغال ولاتعب ؟

قال : نعم ، ألم تسمع الحديث الذى يروى : «إن الجنة حُفت بالمكاره وحُفت النار بالشهوات» .

ويروى فى خبر آخر : «إن الحق ثقيل مرىء[1] ، وإن الباطل خفيف وبىء[2]» .

والنفس مجبولة بحب هذه الدار والسكون إليها ، وحب الدعة[3] والراحة فيها .

أما الحق واتباعه والعمل به ، والصدق وأخلاقه ؛ فذلك كله هو خلاف محبوب النفس .

فإذا عقل العبد عن الله تعالى وفهم مادعاه إليه من العزوف[4] عن

(١) مرىء : طيب .

(٢) وبىء : كثير مرضه : (ضرره) .

(٣) الدعة : الترك (حب الراحة) .

(٤) عزف عن الدار : انصرف عنها .

هذه الدار الفانية ، والرغبة فى الدار الباقية ، حمل عند ذلك نفسه على احتمال المكاره : من ركوب طريق الصدق ، وعزم على بذل المجهود ، وصبر لله تعالى ، وكابد[1] نفسه ، واستعان بالله تعالى ؛ فنظر الله تعالى إليه راغباً فيما لديه ، حريصاً على أن يرضيه ، وعاد عليه عند ذلك بلطفه وعونه ، فسهل عليه العسير مما استصعب من نفسه ، وأبدله بالمرارة حلاوة ، وبالثقل خفة ، وبالخشونة ليناً ودعة ، فسهل عليه قيام الليل ، وصارت المناجاة لله تعالى ، والخلوة بخدمته له نعيماً بعد شدة المكابدة ، وصار الصيام ، والظمأ فى الهواجر[2] : خفيفاً عليه ، حين ذاق عذوبة مارجا من روح الله تعالى ، وحسن عاقبته .

وكذلك : تبدلت وسهلت : الأخلاق ، والأحوال ، عليه ، حين قام له من كل مقام عاناه وكابده لله تعالى ، التماس رضاه عوضٌ مكانه من الخير ، فتغيرت عند ذلك أخلاقه ، وانتقل طبعه وهدأت نفسه وانتعش عقله ، وسكنه نور الحق فألفه ، ونفر عنه الهوى وطفئت ظلمته ، فصار عند ذلك الصدق وأخلاقه طبعاً له ، لايحسن غيره ، ولا يألف إلا إياه ، ولا يسكن إلى غيره ، واكتنفته[3] العصمة من ربه .

فضعف عند ذلك كيد عدوه ، وصار مغلوباً ، حين ماتت دواعيه

---

(١) كابد نفسه حمل نفسه المشقة .

(٢) الظمأ فى الهواجر : شدة العطش فى الحر الشديد .

(٣) اكتنفته العصمة : أحاطته من كل جانب .

من الباطل ، وكلّ[1] سلاحه ، بموت الهوى وانقياد النفس ، حين تخلقت بأخلاق المرحومين .

قال الله جل ذكره حين أخبر عن يوسف عليه السلام : (إنّ النفس لأمارةٌ[2] بالسوء إلا مارحم ربي)

فأنفس الأنبياء والصديقين عليهم السلام مرحومة ، وكذلك كل مؤمن على حسب قوة إيمانه ، فسقطت عند ذلك عن البعد معاناة الصدق ، وثقل العمل به ، فصار عاملا بالصدق الذى ذكرناه ، وأكثر بأضعاف كثيرة بلا مؤنة ، بل صار ذلك نعيما وغذاء ، إن تركه توحش من تركه وتفزع[3] من فقده ، فصار الصدق وأخلاقه صفة له ، لايحسن غيرها ، حتى كأنه لم يزل كذلك .

ومصداق ذلك فى الكتاب والسنة موجود .

قال الله تعالى : (والذين جاهدُوا فينا لنهدِينهم سُبُلنا ، وإنَّ الله لمعَ المحسنينَ)[4] .

وقال عز وجل : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيستخْلِفَنَّهم فى الأرض كما استخلف الذِين مِن قبلهم ، وليمكنن لهمْ

---

(١) كل السيف : أى لم يعد يقطع .

(٢) لأمارة بالسوء : تهم بالسوء .

(٣) تفزع من فقده : كثر خوفه .

(٤) العنكبوت : ٦٩ .

دينهم الذى ارتضى لهم ولیبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً)[1] .

وقال عز وجل : (ونريدُ أن نمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض)[2]

وقال عز وجل : (وجعلنا منهم أئِمةً يهدُونَ بأمرنا ، لما صبروا)[3] أى عن الدنيا .

وإنما أردنا أن نثبت المجاهدة للنفوس ، وبذل الجهد[4] فى الصدق .

ثم إن المعونة من الله تأتى من بعد ذلك ، والحجة فى ذلك قائمة فى السنن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير سورة «طه» قال : معنى «طه» : يارجل ، بلسان الحبشية : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) قال : لتعنى به .

أفلا ترى أنه حين قام ﷺ لله عز وجل شكراً ، حتى تورمت قدماه شكراً لله تعالى ، فأمره بالهدوء ؟

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) القصص : ٥ .

(٣) السجدة : ٢٤ .

(٤) الجهد : الوسع والطاقة .

وقد روى : «أن النبي ﷺ كان يتعبد فى جبل حراء الشهر وأكثر»[1]

وكذلك يروى : «أن النبي ﷺ كان يحرس ويحفظ من عدوه ، حتى نزلت هذه الآية : (والله يعصمك من الناس) فنحى[2] الحرس تصديقاً لقول الله عز وجل حين ذكره له : أنه يعصمه ، فأيقن وسكن ﷺ .

وكذلك المؤمنون يأتيهم اليقين بعد الضعف ، وكذلك النبي ﷺ كان يخرج إلى الغار بالجبل الذى يقال له : ثور ويختبئ هو وأبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ، ثم يخرجان إلى المدينة هاربين فى السر.

وهذا إنما كان وقت البلوى من الله تعالى له ؛ إذ كان عليه السلام فى مقام الصبر والمجاهدة ، ثم من بعد ماصار إلى المدينة عليه السلام تغزوه قريش يوم وقعة أحد فتقتل أصحابه وتكسر رباعيته[3] عليه السلام ، ويدمى وجهه .

أفلا ترى أن الهوى[4] والمحنة لازمة له ، وللمؤمنين طالبة لهم ؟ ثم إنه ﷺ يخرج هو وأصحابه ، فيهل[5] ويسوق الهدى ، يريد

(١) رواه البخارى .
(٢) نحى الحرس : عزلهم .
(٣) رباعيته السن التى بين الثنية والناب .
(٤) منازعة النفس .
(٥) يهل : يرفع صوته بالتلبية (لبيك اللهم لبيك ـ فى الحج) .

العمرة[1] فتمنعه قريش من دخول مكة ، حتى اضطرب الناس ، فأحل[2] بالموضع الذى يسمى الحديبية ورجع ولم يدخل الحرم !!!

ثم انظر الآن حين انقضت مدة البلاء وجاء النصر كيف دخل مكة ، ﷺ فقتل وأمن من شاء ، ثم بشر عندها بالمغفرة ، فأنزل الله عز وجل : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر)[3] الآية

وهذا موسى ﷺ ومنزلته عند الله ؛ فانظر إلى عظيم بلائه ، حين حملت به أمه ، كيف ذُبحَت النساء ، وقتل الولدان ، فى طلب موسى ، عليه السلام ! فرجع بلاؤه على الخليقة .

ثم أخبر الله عز وجل عنه فقال : « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ؟ »[4] .

وقال : (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب قال : ربِّ نجنى من القوم الظالمين ؟)[5] .

ثم انظر أيها المريد ، الطالب للوصول إلى كرامة الله عز وجل ،

---

(١) العمرة : الحج الأصغر (وهو مأخوذ من الاستعمار أى الزيادة) .

(٢) أحل : خرج من إحرامه .

(٣) الفتح : ١ ، ٢ .

(٤) القصص . يترقب : ينتظر .

(٥) القصص : ٢٠ ، ٢١ .

بالتوانى والتفريط [1] . ألم يبلغك أن موسى ، عليه السلام لم يصل إلى امرأته حتى رعى الغنم وخدم عشر سنين ، ثم أرسله الله تعالى وكلمه وأظهر برهانه ؟ !

فقال : (لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى) ؟ !

فحين قال لها : «لاتخافا » هل خافا ؟ ألم يجعل لها آية فى عصا ، فظهرا [2] على كيد السحرة ، وهزما الجيوش ، ثم أداله [3] الله تعالى من أعدائه ، وأغرقهم أجمعين ؟ !

وهذا يوسف عليه السلام حين أخبر الله تعالى عنه : أنه يلقى فى الجب ثم يباع بثمن بخس : دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ، ثم لم يفارقه البلاء ، حتى فتن بامرأة العزيز وسجن السنين الكثيرة .

ثم انظر كيف أداله الله تعالى على إخوته ، ثم أخرجهم الله تعالى ، فأظهر برهانه وجعله على خزائن الأرض .

وكذلك الأنبياء الذين ذكرهم الله ، عز وجل ، عليهم السلام .

وفى هذا بلاغ لمن فهم عن الله عز وجل وعن العلماء الأدلاء [4] على الطريق إلى الله عز وجل ! !

---

(١) التوانى والتفريط . التوانى من توانى تواناياً إذا لم يهتم ولم يحتفل بالأمر ، والتفريط من فرط تفريطاً إذا ضيعه .

(٢) ظهر : تغلبا .

(٣) أداله الله : جعل الغلبة له على عدوه .

(٤) الأدلاء : المرشدين الكاشفين .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما روى عنه : أنه ما سلك طريقاً قط إلا سلك الشيطان طريقاً غيرها ، وقال : «إن الشيطان ليفر من جبين عمر» وقد كان بالأمس من اللات والعزى فى أمور ترضى الشيطان !

فانظر كيف أخلص لله تعالى وصدق إن كان منه العدو وباطله .

وروى عن ثابت البنانى رحمة الله عليه أنه قال : «كابدت [1] القرآن عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة»

وقال بعض الحكماء : «إن القوم لم يزالوا يمضون [2] الصبر حتى صار عسلاً» .

وقال بعض الحكماء : «إن دون [3] كل بر عقبة ، فمن تجشم ركوبها أفضت [4] به إلى الراحة ، ومن هاله [5] ركوب العقبة فلم يرقها [6] بقى مكانه ! »

قلت : فلا بد من هذه البلوى والاختبار ؟

قال : لابد منه لكل عبد رفيع القدر عند الله عز وجل ، من أهل

---

(١) كابد : تحمل المشاق .

(٢) يمضون الصبر : يتحملون ألمه .

(٣) دون كل بر : قبل كل بر .

(٤) أفضت به : انتهت به .

(٥) هاله : أفزعه .

(٦) يرقها : يصعد إليها .

المعرفة بالله ، عز وجل .

وقد صح الخبر عن النبي ﷺ : «أنه سئل : من أشد الناس بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ثم ، الأمثل ، فالأمثل»[1] .

يبتلى العبد حسب دينه : فإن كان فى إيمانه قوة شدد عليه البلاء ، وإن كان فى إيمانه ضعفٌ خفف عليه البلاء .

فالأنبياء عليهم السلام ، بادأهم الحق عز وجل ، بكرامة الرسالة ، وبشرهم بالنبوة ، ثم حمل عليهم البلاء ، فاحتملوا البلاء بقدر الكرامة التى أكرمهم بها ، حتى راضهم[2] بالبلاء وتفقهوا فيه ، وبه صبروا لله عز وجل ، حتى نصروا .

والمؤمنون قامت لهم الرغبة فى ثواب الله عز وجل الذى وعدهم ، والرهبة من عقابه الذى به تواعدهم ، فصبروا لله تعالى وأخلصوا وصدقوا ، فشكر الله تعالى لهم ذلك ، وأظهر برهانهم على الخليقة ، فجعلهم علماء يقتدى بهم ، وأسكن اليقين قلوبهم .

ثم إن المؤمنين ، بعد ذلك على وجهين :

فمنهم : من يبتدؤه الله تعالى ، بالنعمة والمنة والموهبة ، فيهب له

---

(١) رواه الطبرانى بسند حسن . وله شواهد فى مسند أحمد ، والبخارى والترمذى ، وابن ماجه .

(٢) راضهم بالبلاء : أسلس قيادهم به : أى جعل أنفسهم راضية بالبلاء حتى صار الحلم طابعها والدعابة من سجاياها .

الإنابة ، ويحبب إليه البر ، ويسهل عليه الطاعة ، ويبدؤه بالمنن الكثيرة .

فإذا تمكن الروح فى قلبه ، واستعذب الأعمال الصالحة حمل عليه ، بعد ذلك البلاء والاختبار والمصائب والضراء والعسر والشدة نعم .

ثم تؤخذ منه الحلاوة التى كان يجدها ، والنشاط فى البر ، فتثقل عليه الطاعة بعد خفتها ، ويجد المرارة بعد الحلاوة ، والكسل بعد النشاط ، والكدر بعد الصفاء ، وذلك لعلة البلوى والاختبار ، فتعتريه الفترة[1] .

فإن جاهد الآن وصبر واحتمل المكروه ، صار إلى حد الراحة والبلوغ ، وأضعف له البر ظاهراً وباطناً ! !

وهكذا يروى فى الحديث : «إن لكل شرة[2] فترة ، فمن كانت فترته إلى سنة[3] : فقد نجا ، وأن كانت فترته إلى بدعة[4] فقد هلك »

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : «طوبى لمن مات فى النأناة بدء الإسلام وشرته »

ويروى فى الحديث : «إن الله عز وجل ، يأمر جبريل عليه السلام ، فيقول : اقبض حلاوة الطاعة من قلب عبدى ، فإن تأسف عليها فردها عليه وزده وإلا فدعه » !

---

(١) الفترة : انكسار الحدة وذهاب النشاط .

(٢) الشرة : الحدة .

(٣) السنة : الطريقة التى مات عنها الرسول ﷺ والصحابة والتابعون .

(٤) البدعة : ماخالفت السنة . والحديث رواه البيهقى .

ويروى فى حديث آخر : « إن الله عز وجل ، يقول : إن أدنى[1] ما أصنع بالعالم إذا ركن إلى الدنيا أن أنزع حلاوة مناجاته إياى من صدره ، وأن أدعه فى الدنيا حيران » .

وفى خبر آخر : إن العبد إذا ركن إلى الدنيا بعد العلم والمعرفة والعلم بالبصيرة ، يقول الله عز وجل ، لجبريل عليه السلام : « انزع حلاوة مناجاته إياى من صدره ، وأعطه من الدنيا مقصماً[2] يشتغل به عنى » .

أما العبد الثانى : فإنه يبدأ بالصدق والأعمال الصالحة وأخلاق الصدق ، ثم يعمل فى ذلك ماشاء الله عز وجل ، فتأتيه الكرامة بعد ذلك ، فيعطيه الله تعالى مالم يرجه ويحتسبه :

وهكذا عامة البدلاء : لاتأتيهم الآيات والكرامات إلا من بعد العمل وبذل الجهد ، وأكثر مالم يحتسبوا ما أتاهم الله تعالى به ، حين بدأهم الله عز وجل به .

ومنهم من اطلع على القوم وقيل له : إنك منهم ، فعمل بعد أن أخبر بذلك .

ومنهم من يعرف نفسه ولايعرف غيره .

ومنهم من يعرف الجميع بأسمائهم وقبائلهم .

---

(١) أدنى : أقل .

(٢) مقصماً : مقطعاً .

فإن كنت أيها السائل عن الصدق وشرح الطريق ، قد عملت فى الصدق ماذكرته لك من العلم ، وباشرت هذه المنازل ، ونزلت هذه المراحل ، وقطعت هذه الأسباب التى ذكرناها ، فأفضيت منها إلى الراحة والسكون والطمأنينة ، فأنت محاط بالعصمة ، وماض على سبيل الاستقامة والمحجة البيضاء ، التى توردك على الله عز وجل ، فهنيئاً لك ، وبارك الله فيك ، فأنت من أمرك على بصيرة .

فإن كنت قد باشرت الصدق وعملت فى كل مقام البر بقدر طاقتك وما أذن الله تعالى لك ، وعاينت الأمور ، فعسى أن يكون الله قد رآك ، وقد أبليت[1] فيما بينك وبينه ، عذراً لرغبتك فى التقرب إليه ، فصح إليه افتقارك ، حين علمت أنه لابد لك منه ؛ فألقيت كنفك[2] بين يديه ، فعسى أن يكون قد رآك فى بعض الأوقات إليه قاصداً راغباً ، بنية صحيحة وعزم صادق ، علم أنك لاتمل ولاتبرح من التعرض له دون بلوغ مناك ، فجادلك ببره ، وأعطاك بعض الأمل منه ، بل جذب قلبك إليه جذبة ، فأسكنه اليقين ، وأشرف به على الآخرة ، فسهل عليك عند ذلك العسير ، وألان لك من نفسك الصعب الذلول ، ثم اختصر بك الطريق إليه ، فقرَّ قرارُك وقامت حياتك وطاب عيشك .

فبذلك تعرف السيِّدَ الكرِيم الذى لاتنقصه المواهب ، ولاينفد

---

(١) أبليت : خرجت من الامتحان فائزاً منتصراً .

(٢) كنفك : جانبك .

نائله ، لأنه البرُّ الرحيمُ ، الذى تَسَمى الشكور ! !

فيا عجباً كلَّ عجب ، وعجبَ كلِّ متعجّب ، ولا عجب ، إذ كان السيّد الكَريم يفعل مايريد .

ولكن موضع العجب يلزم العبيد من شكره لعبيده ، الأمر الذى بدأهم به ودلهم عليه ، واستعملهم به وحفظ عليهم ، ثم أحبهم عليه ونسبه إليهم فعلا ، ثم كتبه لهم فى المقبول ، ثم أثنى به عليهم بماوعدهم عليه الجزاء ! !

فهذا البر الآن من الكريم لاتقف عليه العباد ، بل تحيرُ فيه العقول !

هيهات أيها السائل المريد ! ! أستيقظ من طول هذه الرقدة ، إنما هذه أسماء علقها عليهم أنهم فاعلون ، وأمور نسبها إليهم وما أظنها إلا له ، والتوفيق والصنعة منه فى صنعته التى تفرد بإنشائها وإبدائها لما شاء ، وهو الفعال لما يريد ، الذى يصيب برحمته من يشاء ! !

والعقلاء عن الله عز وجل ، من عباده يتلقون الأمور على هذا الوصف والشرح ، ويرجعون فى الأشياء إليه ، ويرونها منه سبحانه ، لأنه كان بدأها ، وعليه تمامها ، فهو القائم بها وإليه مرجعها ! ! !

و ﴿لله الأمْر مِنْ قَبْل وَمِنْ بَعْدُ﴾

﴿أَلَا لَهُ الخلقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالِمينَ﴾ .

وأما الضعفاء من الخلق ، فإنهم يَرَوْنَ لأنفسهم هاهنا فعلا هيهات إذا صدقوا وأخلصوا طلبوا الجزاء من الله عز وجل على ذلك ، وذلك

مبلغهم من العلم ، ولهم عند الله تعالى خير كبير.

وأذكر لك مقاماً آخر ، فاعرض نفسك ، وغيرك عليه ممن تراه من العبيد ، يشير إلى المعرفة والعلم ، والسكون إلى الله عز وجل ..

فإن كنت قد شربت بكأس المعرفة بالله تعالى ، فأطلعك الله بصفاء اليقين ، على ماسبق لك عنده فى القديم ، حين أرادك قبل أن تريده وكان لك عالماً قبل أن تعرفه ، وذكرك قبل أن تذكره ، وأحَبكَ قبل أن تحبه ، فهاج منك الآن الشكر له على أياديه[1] ، فألزمت قلبك المحبة على أياديه ، فآثرته وارتاحت روحك إليه ، فألفت قربه ، فصرت الآن إليه تأوى ، وفى قربه تسكن ، فهو لايغيب عنك ولاتفقده ذاهباً وجائياً وقائماً وقاعداً ، ويقظان وراقداً ، وعلى كل حال .

أما سمعت مايذكر عن النبى ﷺ حين يقول :

«تنام عيناى ولاينام قلبى»[2]

وكذلك المؤمنون على أقدارهم .

فما أعظم شأنك[3] أيها العبد وأجل خطبك ، إذ كان السيّد الكَريم الكبير المتعال الغنى الحميد ، ذكرك ذكراً بعد ذكر فخصك ، فأجزل

---

(١) أياديه : نعمه .

(٢) بسند ضعيف ابن سعد عن الحسن مرسلاً .

(٣) شأنك : قدرك .

لك العطية ، إذ دَلَّك على محبته فآثرته ، فكان هو بُغْيَتَك ومرادك[1] ، ومنتهى رغبتك وليس منك شيء تملكه للعباد ، ولكنها موهبة ، وهي أوّل أعلام الوصول إلى الراحة يكون الله مُراد العباد لاغيره .

ومن علامة ذلك : أن يكون هو الحافظ عليك ، ما استودع قلبَك من ذكره ومودته ، وأوجدك من قربه وتعطف عليك ببره ، فسامحك الآن ، فسقطت عنك حركاتُ الطلب للظفر أو التقرب ، إلا حركة تهيِّج منك الآن شكراً له على أياديه ، وإيجاباً لحقه وأُلْفَةً[2] له غيره ، والتنعم بمناجاته ، ولذة خدمته ، وما أراد فيك من تعبده بمشيئته ، ليريك موضِعَ قُدْرته ، واختلاف أحكامِه عليك لتفقه عنه ، وأنتَ في ذلك : واجدٌ لقُرْبه ، وغَيرُ متشاغل بحركاتك ، ولاطالب منه عليها جزاءً وثواباً ، كما أراد العبَّاد الزهاد ، ولكن تعمل لله تعالى حبًّا وكرماً ، لأنه خلقك كرماً واسْتعمَلْتَ بأخلاق الكرماء .

وبالله التوفيق .

---

(١) مرادك : طلبتك واختيارك .

(٢) ألفة : محبة وائتلافاً ، أى التئاماً واجتماعاً .

علامة الواصلين

وهذا الآن جوابٌ لك آخر ، على مسألتك ، حين قُلْت : هل يصير العبد إلى حالٍ يفقد مُطالَبة الصِّدْقِ من نفسه ؟ وهى علامة الواصلين ، فافهمها .

أما علمت أيها المريد : أن الورع والزّهد والصبر والتوكل والخوف والرجاء والمراقبة والحياء والمحبة والشوق والأنس والصِّدق فى المواطن والإخلاص فيها ، وكل خلقٍ حسن جميل : إنما هى منازل نزلها العمال لله ، عز وجل ، ثم ارتحلوا منها إلى غيرها ، حتى وصلوا إلى المنى من قُرْب سيدِهم ؟ !

فما أنت وذكرُ المنزل الذى نَزلْته حتى أوصلك إلى بُغْيتك ، إن كنت واصلا ظافراً ببعض حظك من مطلوبكَ ؟ فأنت كأنك مشاهدُه .

فعليه الآن فازْدَدْ إقبالا ، وإليه فأدِم النظر وأصغ إليه بالآذان الواعية ، فإنه أقربُ إليك منك إلى نفْسك ، فما أنت الآن وذكر الصدق ؟ ! وإنما هو منزل من منازل الطالبين .

وبعدُ ، فإن كان قد فتح لك الباب الذى كان بينك وبينه مغلقاً ، وكشف عن قلبك السِّتر الذى كان عليه مرخى ، فأوْجَدك قُرْبه ، ولاطفك ببعض التأنس ، فعساك أن تكون قد صرت إلى بعض سُؤْلك فقرّ قرارُك .

وإن كنت وغيرُك من الطالبين : إنما فقدت وجُودَ مطالبة الصدق ، وما أشبه من الأمور من وجُودِك لقُرْبِ الله عز وجل والتشاغُل به ، فتلْكَ بُغْيَةُ العَارِفين بالله عز وجل .

وكذلك فافهمها من نفسك ومن غيرك ، ولاتتخذ عن لنفسك من حظك من ربك .

واعلم أن الواصلين إلى الله عز وجل ، وأهل القرب منه ، الذين قد ذاقوا طعم محبة الله تعالى بالحقيقة ، وظفروا بحظهم من مليكهم ؛ فمن صفاتهم : أن الورع والزهد والصبر والإخلاص والصدق والتوكل والثقة والمحبة والشوق والأنس والأخلاق الجميلة ، ومالم يكن يمكن أن يوصف من أخلاقهم ، وما استوطنوه من البرِّ والكرم فذلك كله معهم ، وساكن فى طبعهم ، ومخفى فى سرائرهم ، لايحسنون غيره ، لأنه غذاؤهم وعادتهم ، لأنهم فرضوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، وعملوا فيه حتى ألفوه ، فلم يكن عليهم بعد الوصول كُلْفة[1] فى إتيانه والعمل به ، إذا حل وقت كل حال ، لأن ذلك غذاؤهم ، كما ليس لهم فى أداء الفرائض ثقلٌ ولا علاجٌ[2] .

وذلك لما غلب على قلوبهم من الإيثار لله عن وجل ، والقُرْب منه ،

---

(١) كلفة : مايكلف به الإنسان على مشقة .

(٢) ومنه قوله ، ﷺ ، فى شأن أحد الصحابة . « قام العيد صهيب لولم يخف الله لم يؤمنه » .

فهم عاملون به بلا مؤونة ، بل بلا تشاغل بالأعمال الظاهرة ، لأن الخدمة والأعمال الظاهر : إنما تقع على ظاهر الجوارح .

فافهم هذا الموضوع ، والقلوب بعد ذلك ذاهلة ، بل هى بالله مشغولة للذى استولى عليها من قرب الله عز وجل ، والمحبة لله والشوق إليه والرهبة منه والتعظيم له والإجلال .

فافهم أيها المريد ماألقيت إليك وتدبره تجده بياناً معروفاً ، إن شاء الله تعالى .

فأحضر الآن عقلك ، واجمع همك ، ولاتسمع العلم وأنت عازب[1] الفهم عن الذى يُلقى إليك ، فلا عذر لك الآن بعد العلم والبيان ، بل قد تأكدت عليك الحجة ، فاعمل فى التخلص إلى الله عز وجل ، لعلك تتخلص ، فتقر عينك بمعرفته فى هذه الدار عاجلا قبل الآجِل .

نعم ، ثم يدوم حزنك ، ويشتد كربك ، وتزداد كل حال كنت تجدها أضعاف ماكنت تجدها قبل المعرفة والوصول .

ومصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ قال الله عز وجل : (إنما يخشى الله مِنْ عِبادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

وقال النبى ﷺ : «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[2] .

---

(١) عازب : غائب .

(٢) خشية : خوف .

وقال ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون[1] إلى الله »

وعلى حسب ذلك كان ﷺ

وكذلك العارف بالله ، القريب من الأشياء ، الموفق فى كل حال يحل فيها بمايكون فيها : بخلاف غيره من الناس .

ثم على هذا القياس ، وفى هذا بلاغ لمن فهم وتدبر .

والله التوفيق .

---

(١) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء . والحديث متفق عليه إلى قوله «كثيراً» ورواه بهذه الزيادة أحمد والحاكم .

المقربون

قلت : متى يألف العبد أحكام مولاه ، ويسكن فى تدبيره واختياره ؟

قال : الناس فى هذا على مقامين ، فاقهم .

فمن كان منهم إنما يألف أحكام مولاه ، ليقوم بأمره الذى يوصله إلى ثوابه ، فذلك حسن وفيه خيرٌ كبير ، إلا أن صاحبه يقوم ويقع ، ويصير مرة ويجزع أخرى ، ويرضى ويسخط ، ويعبر ويراجع الأمر ، فذلك يؤديه إلى ثواب الله ورحمته ، إلا أنه معنى فى شدة ومكابدة .

وإنما يألف العبد أحكام مولاه ، ويستعذب بلواه ، ويسكن فى حسن تدبيره واختياره بالكلية بلا تلكؤ[1] من نفسه : إذا كان العبد : آلفاً لمولاه ولذكره ، وهو له محبٌّ وادٌّ ، وبه راض ، وعنه راض .

فهل يكون ، أيها السائل ، على المحب مؤونة فيما حكم عليه محبوبه ؟ كيف ؟ وإنما يتلقى ذلك بالسرور والنعيم ! !

هكذا قال فى الخبر : حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

وقال فى خبر آخر : غنية الصديقين : مازوى[2] عنهم من الدنيا »

---

(١) تلكؤ : تباطؤ .

(٢) زوى : جمع وللمعنى : (نقى عنهم جمع الدنيا) .

وروى عن الله عز وجل فى بعض ما أنزل من كتبه : أنه قال : «معشر المتوجهين إلىَّ بحبى ، مايضركم مافاتكم من الدنيا ، إذا كنتُ لكم حصناً ، وما يضركم من عاداكم إذا كنت لكم سلماً ؟ ! »

فمن كان مع الله عز وجل ، بهذ الأحوال فى المواطن ، كيف يكون إلا على نحو ماذكرناه ! !

ولقد قال بعض العلماء بالله تعالى ، وأهل القرب منه : إن القوم الذين ذكرنا بعض أحوالهم لايرضون من أنفسهم أن تكون تقاوم الأمور عند حلولها ، والأحداث عند نوازلها ، حتى تتمكن من قلوبهم ، فيحتاجون أن يصبروا عليها أو يرضوا بها ، بل الصبر والرضا لهم ، تابع مضاف ، لأنهم طالبوا من أنفسهم صحة الشغل بالله تعالى ، والانفراد به ، فلم يرضوا عند ذلك أن تكون الأمور النازلة بهم تقاوم ذكر الله تعالى ، حتى تساويه : (والله غالب على أمره) .

وبعد ، فإنهم عبيد محكوم عليهم ، وإن أقل القليل فى الأوقات ليملكهم ، حتى يقروا لله تعالى ، بالضعف ويسألوه العون ، فلا تعجب ، إذا بدا[1] لك من أحد منهم شيء من ذلك ، فهذا النبى ، ﷺ ، يقول : «إنى بشر : اللهم من دعوت عليه فاجعل دعائى عليه رحمة» .

وسمعت بعض العلماء بالله عز وجل ، يقول : إن من شدة اتصال العبد بمولاه ووجده به ، ونزوله فى قربه لايجد طعم اختلاف الأحكام ،

---

(١) بدا : ظهر .

بل يكون معه النظر الخفي إليها ، حتى كأنها على غيره أو بغيره نازلة .

فهذا غاية من التلقي للأحكام ، فافهم هذا الموضوع وتدبره ، فإنه يؤديك إلى علم السكون إلى الله عز وجل ، إن شاء الله .

وإنما يكون السكون إلى الله تعالى ، والطمأنينة على قدر القرب من القلب .

ومن شرح السكون إلى الله تعالى ، فقد حس الأشياء من القلب وسكون دواعي الهم ، وهدوء الضمير مع الله وإلى الله تعالى !

فعند ذلك تكون الأمور من الدنيا والآخرة ، وأعمال البر والطاعة طالبة للعبد ولاحقةً به ، وإليه محتاجة وإليه واصلة ، بل إليه موصولة ، لأنه عزف عنها[1] واستغنى بمالكها فوصلت إليه .

قال الله عز وجل : ﴿أليس الله بكافٍ عَبْدَهُ﴾[2]

وبلغنا أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى عليه السلام : «أنزلني منك كهملك واجعلني ذخراً لك في معادك»[3] .

وروى عن النبي ﷺ : من غير طريق أنه قال : «من جعل الهم هماً واحداً[4] كفاه الله سائر همومه» .

---

(١) عزف عنها : انصرف عنها .

(٢) الزمر : ٣٦ .

(٣) معادك : آخرتك .

(٤) في روايات أخرى : من جعل الهم همًّا واحداً هو المعاد . . أو هو التقوى .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله ، أنه قال : «ماعجبت من عبادة ملك مقرب ولانبي مرسل إذا كان الله عز وجل قواهم على ذلك» .

وهكذا من ذكرناه من القوم وصفاتهم .

فمن نظر إلى عبيد الله تعالى ، بنفسه وقياسه ، وبأنفسهم مايشبههم فهم عنده فى موضع النقص أبداً .

فإذا نظر إليهم بالله عز وجل ، وبقوته وتدبيره فما يعجب ؟

وبالله التوفيق .

مسألة تدل على ماذكرناه ، قلت : فما تقول فى عبد كان لايتكلم ولايتحرك ، ولايعمل عملا إلا طولب عليه فى ذلك ووجد النقصان ولحقته الفترة والقسوة فى أوقات نيله وأكله وشربه ، وكذلك فى جميع أحواله ، ثم صار إلى حالٍ يتكلم ويتحرك فى الأمور ، ويقبض ويبسط ، ويأكل ويشرب ، ولا يستوحش ولا يجد مطالبةً ولايرى نقصاً كما كان يراه قبل ؟

فقال : «هذه مسألة حسنة فافهمها ، فما أحوج المريدين العمال إليها» .

اعلم أن المريد الطالب للصدق ؛ فهو عاملٌ فى جميع أموره بالمراقبة لله عز وجل بالقيام على قلبه وهمه[1] وجوارحه ، بالمحاسبة .

(١) الهم : أول العزيمة .

«فهو جامع لهمه حذراً من أن يدخل فى همه مالا يعنيه حذراً من الغفلة»

فالحركات فى ظاهر جوارحه بجوارحه تنقصه ، والهمم الداخلة عليه فى قلبه تكثر همه[1] ، فهو عند ذلك يتفرغ من الحركات التى ذكرت ، وإن كانت فى حق وبحق ، وذلك لما غلب على قلبه من محبته أن يكون ذكره دائماً ، وهمه واحداً .

فإذا دام على ذلك تفطن قلبه وصفت فكرته ، وسكن النور قلبه وقرب من الله تعالى ، فغلب على قلبه وهمه !

فعند ذلك يتكلم والقلب يغلى بالذكر لله عز وجل ، وقد كمنت[2] فى سويداء[3] قلبه محبة الله تعالى ، فهى لازمة للضمير لاتفارقه .

فمن شأنه فى سرائره أن يكون ناعماً بالمخاطبة لله الحفية ، والمطالعة الشجية والمحادثة الشهية .

وهكذا يكون فى أكله وشربه ونومه وكل حركاته ، لأن قرب الله تعالى ، إذا تمكن فى قلب العبد غلب على ماسواه من باطن عوارض الهمم ، وظاهر حركات الجوارح ، فعندها يكون العبد ذاهباً وجائياً ،

---

(١) همه : انشغاله .

(٢) كمنت : اختفت .

(٣) سويداء قلبه : حبة قلبه .

وآخذاً ومعطياً ، والغالب عليه هم ماقد ملك ضميره من محبة الله عز وجل وقربه .

ألم تر نفسك ، أيها المريد كيف تملك قلبك أحيانا هم من أمر الدنيا ، فيسلبك عن كل شيء ، حتى يكدر عليك العيش ، فتكون ساهياً إلا عن ذلك ، حتى تفقد النوم ؟

فأمر الله عز وجل : أحرى عند العقلاء وأولى .

فعندما ذكرنا صحبت العبدَ من الله عز وجل العصمة ، فكان محفوظاً من النقصان .

خاتمة الكتاب

فافهم أيها السائل : ما يلقى إليك وتدبره ؛ ينفعك إن شاء الله ، تعالى .

وبعد فاعرض ماذكرت لك على ماسألت عنه ؛ فإن أجزاك وكان مافقدت وماوجدت من جنس ماذكرت ، فاشكر الله تعالى يزيدك . ولايخفى على العلماء ما يحدث عندك ، فليس بين المريد ومعلمه رثاء ، إن شاء الله تعالى ، وأنى بمؤدب بصير جهبذ فى زماننا هذا .

وبالله التوفيق .

ناسخ الكتاب

تم كتاب «الصدق» للشيخ العارف «أبي سعيد الخراز»، رحمه الله. ونفع بأنفاسه، وسلم عليه سلاماً طيباً مباركاً فيه.

والحمد لله وصلواته على محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه العبد الضعيف الفقير: إسماعيل بن سودكين، رفق الله به، وأخذ بيده ورحمه ورحم والديه وجميع المسلمين.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.